مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn:2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 12 / العـدد: 01 (2024)، ص: 775-793

الحداثة والفردانية عند تشارلز تايلور

Modernity and individualism according to Charles Taylor

زياني يوسف[1]، مداح رزقي[2]
[1]المخبر؛ مجتمع _تربية _عمل _ جامعة تيزي وزو(الجزائر)
youcef.ziani@ummto.dz
[2]المخبر؛ مجتمع _تربية _عمل _ جامعة تيزي وزو(الجزائر)
rezki.meddah@ummto.dz

تاريخ الاستلام: 11 /2023/11 تاريخ القبول: 2024/02/21 تاريخ النشر: 2024/03/03

ملخص: يروم هذا المقال إلى إبراز الإرتكاسات التي انبثقت من الفر دانية ومختلف انعكاساتها سلبية على حياة الإنسان الغربي وذلك باعتبارها من أهم الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية في الفترة الحديثة والمعاصرة، ونهدف من وراء ذلك إلى الكشف عن تلك الآليات التي تشتغل ضمنها وتبيين لأهم الانحرافات والانزلاقات الناجمة عنها، ما أدت إلى ظهور ظواهر لم تعرفها الحضارة الإنسانية من قبل مثل فقدان المعنى، تشتت الروابط الاجتماعية، تنامي النزعة النرجسية والأنانية التي أصبحت تسعى لتحقيق المنفعة والربح وفق الذات الإنسانية دون الأخذ بعين الاعتبار للأبعاد القيمية والروحية، وعليه جاءت هذه الورقة البحثية والتي نهدف من خلالها إلى إبراز موقف الفيلسوف الكندي تشارلز تايلور من الحداثة والفر دانية وذلك بإعادة إعطاء قراءة جديدة عن طرق إبراز أهمية الأنساق المتعالية في تحديد تركيبة المخيال الاجتماعي التي تتحدد علها هويتنا الإنسانية.

كلمات مفتاحيه: الحداثة، الفر دانية، تشتت الروابط الاجتماعية، النرجسية، الأنانية.

Abstract: This article aims to highlight the repercussions that emerged from individualism and its various negative repercussions on the life of Western man, as it is one of the most

important foundations on which Western civilization was built in the modern and contemporary period. We aim from this to reveal those mechanisms that operate within it and to point out the most important deviations and skidding resulting from them. Which led to the emergence of phenomena that human civilization had not known before, such as the loss of meaning, the dispersion of social ties, and the growth of narcissistic and selfish tendencies that began to seek to achieve benefit and profit according to the human self without taking into account the value and spiritual dimensions. Accordingly, this research paper came about, through which we aim. To highlight the position of the Canadian philosopher Charles Taylor on modernity and individualism by giving a new reading on ways to highlight the importance of the cultural, moral and religious dimension in resetting and properly understanding the path it has reached, which will allow understanding the crisis of contemporary man.

Keywords: Modernity, Individualism, Dispersion of social ties, Narcissism, Selfishness.

***المؤلف المرسل:** يوسف زياني

1. مقدمة

يعتبر تشارلز تايلور **CHARLES TAYLOR** (من مواليد 1931بمقاطعة الكبيك) احد اهم الفلاسفة المعاصرين ومن اهم المنظرين السياسين في كندا، كما وقد اشتهر بمعالجته للقضايا التي تعنى بشؤون الفكر الانساني بحيث تميزت بمعالجته لمختلف القضايا والمواضيع الراهنة ومن اهمها : مكانة الدين والعلماني في عالم ما بعد الحداثة كذلك مسائل التعدد الثقافي والهوية بالإضافة للقضايا السياسية والاخلاقية والاجتماعية ولعل ابراز الاهتمامات التي شغلت تفكير تايلور هي مسالة قلق الحداثة التي القت بسلبيتها على الحياة الانسان

المعاصر ،بحيث ان الحداثة في جوهرها جسدت مشروع تحديث وتجاوز التقليد بكل مورثاته وهذا ما تحقق من خلال تأسيس للفردانية التي تعد اهم مقولات الحداثة الغربية والعقلانية الحداثية كونها قيمة انتصار اتللإنسانية وتتويج لها لما حققته من حرية وتقدم علمي وتقني هادفة لجعل الانسان متسيدا على ذاته والطبيعة ، ولكن من المفارقات الناجمة عن الحداثة انزياحها النسق المنشود وذلك بتحول الانسان من متسيد الى مجرد اداة خاضع للعقلانية الأداتية والنزعة التقنية كما تزمن ذلك مع انحطاط اخلاقي والروحي ناجم عن تصدع الثوابت والانساق التقليدية كلها عوامل عززت الثقافة النسبوية والانغماس في الثقافة تحقيق الذات التي لا تولي اي اهتمام للمعايير القيمية والاتيقية الاخرى والتي تبحث عن المنفعة الذاتية فحسب هذا ما قدنا الى سقوط السرديات الكبرى التي نادت بها الحداثة والفردانية الغربية لتأزم الحياة الانسان المعاصر وذلك بتسطيحها وفقدانها للغايات السامية وفي مقالنا هذا سنتطرق لموقف تايلور من اشكالية الحداثة والفردانية الغربية والاسقام الناجمة عنها ؟والى اي مدى تكمن اهمية الانساق الكلاسيكية المتعالية في تشكل الذات الانسانية ؟ وهدفنا من هذا المقال تقديم مقاربة فلسفية جديدة نظر لان فلسفة تايلور كان لها تأثير عميق على فلسفة المعاصرة من خلال اعطاء فهم جديد لموضوع بحثنا من خلال ابراز اهمية البعد الثقافي والديني في تشكل الحداثة والتي اعتبرت الحلقة المفقودة والوصل بين مرحلة الكلاسيكية والحداثة التي لم ينتبه لها الفلاسفة المعاصرين ،وفي الاخير فقد اعتمدنا في مقالنا على المنهجين التحليلي والنقدي وهذا يعود لطبيعة موضوع بحثنا التي فرضت علينا اتباعهما.

2.في الحداثة وأزمة تمثّل الحداثة في الفكر الغربي المعاصر:

يعتبر سؤال الحداثة من بين القضايا المعرفية المتجددة في الأفق النظري للمجتمعات الغربية الحديثة ، وهذا بالنظر إلى مالازم الحداثة الغربية من أزمات ولحظات نقدية يتميز بعضها بطابعه الجذري في حين يتصف بعضها الأخر بالطابع

السطحي والإصلاحي ،إن أهم مايعاب على منجزات الحداثة هو تحول النسق الاجتماعي الذي أنتجته إلى مصدر للاغتراب والتشيؤ ،وفقدان المعنى وتواري القيم الروحية ،وتفكك الروابط الاجتماعية وهشاشتها ، إن وجود هذه السمات يسمح لنا بوصف هذا العصر بعصر الأزمة العصر ،الذي يترجم حقيقة التقدم الذي حصل بفعل سيادة الفلسفات الوضعية والنزعات العلموية .

لقد كانت الحداثة بمثابة لحظة الوعي الإنسان لذاته وتفطنه لحقيقته،وانه بالعقل قادر على انجاز أمور تشبه المعجزة ،تفطن إلى انه يمكن أن يكون المرجعية الأولى والأخيرة لكل شئ ، وشعار الحداثة من خلال مرجعيتها الأولى هي سيادة الإنسان للعالم الطبيعي ، والتحكم في نموه وتقدمه الحضاري بقدراته الخاصة وحدها، بدون مساعدة أي قوة متعالية ، وعلى رغم من الاختلاف حول الحقبة الزمنية الدقيقة لظهور الحداثة في بدايتها الأولى إلا أن هناك شبه إجماع على أن الغاية التي قامت عليها هي تجسيد قيم عصر التنوير، والتي عبر عنها كانط بأنها السعي إلى إخراج الفرد من القصور الذي هو عليه إلى حالة من الوعي الراشد،عن طريق تحرير هذا الوعي أو العقل من سيطرت القوى التقليدية ، والمتمثلة في الكنيسة أساسا ،والتي تتسم بالجمود الفكري والركود العلمي ،وفرض القيمة والمعنى للحياة وفق تصوراتها بالقوة والقمع وممارسة أبشع الطرق في ذلك.

لقد كانت الكنيسة والسلطة السياسية التي تخضع لها أو تشترك معها في الأهداف تعمل وفق مبدأ التقديس في الأزمنة الوسيطية، حيث تفرض فكرة الوصاية على الفرد والمجتمع لأنه يؤصل مبدأ لا تفكر فهناك من يفكر بدلا عنك، لذا ترسخت في المجتمع ذهنية الانتظار، وساد الثبات كحقيقة واقعة، النتيجة هيمنة أيديولوجيات مغلقة قاتلة لكل مبادرة جديدة يمكن أن تظهر في المجتمع من خلال ذات مفكرة فريدة جريئة قادرة على خلخلة البنى الأساسية للقوى التقليدية، لكن بقاء الأمر هكذا لم يكن بالمرّة قانونا، بقدر ما كان استثناء فقط، لأن الطبيعة

البشرية تفرض على الإنسان أن لا يبقى في مستوى واحدا من الفهم، بل يتغير، ويتقدم، وقد يقع مرة اخرى ضحية التخلف بعد أن استطاع التقدم، وذلك ما حدث في الأزمنة الحديثة حيث تحرر الإنسان من سلطة التفسيرات اللاهوتية للعالم وسلطة العلماء والفلاسفة القدماء مثل أرسطو، مع فرانسيس بيكون وديكارت وغاليليو وغيرهم ، حيث حدثت قطيعة ابستيمولوجية مع حقبة القرون الوسطى ، وقلبت المفاهيم رأسا على عقب وصار لكل شيء معنى وقيمة جديدة أساسها الإنسان وحده، حيث انتصر فيها العقل عن النص المقدس، والقيم التقدمية والقول بالتغيير على الثبات والسكون، والحرية على الجبر، لقد كانت الأزمنة الحديثة هي ميلاد الإنسان بوصفه الأعلى شأنا في الكون، حيث اعتبر بمثابة ذات أو أنا مفكرة (ديكارت، 2008، ص162)، وحرّة وعاقلة، لذا عرفت الحداثة بأنها ميلاد الذات الحديثة التي تعد مصدرا للأفكار والقيم ، وفي هذا صدد يقول د علي حرب:«ولا شك أنه ابتداء من ديكارت، بنوع خاص، سيتشكل الخطاب الفلسفي كخطاب محوره ذاتية الذات، إذ معه ستعالج مسألة الكائن والحقيقة من خلال مقولة الذات المفكرة الحاضرة المتيقّنة من ذاتها بفعل تمثلّها لذاتها، وبذلك يتحول الوجود، لأول مرة، إلى موضوع للتمثل، وتصبح الحقيقة عبارة عن اليقين الذي ينتجه هذا التمثل.»(حرب، 1993، ص ص89-90)، لقد تم ذلك التحول بعد عمليات عديدة قام بها العقل أو الذات كالشك، النقد، إعادة القراءة، والانطلاق من قواعد جديدة قادت إلى هدم سلطة العالم الماورائي، وعل إثر ذلك المنحى المعياري لمشاريعنا السياسية والاجتماعية والأخلاقية بشكل كلي ، حيثُ أصبحت تتحدد بوجود الكائن الإنساني بحد ذاته ويرتد إليه كل شيء وكأن ما حدث هو وفق ما يصرح تشارلز تايلور «التحول إلى داخل الذات» (تايلور، 2014، ص275)،فهذه الأخيرة هي من شكلت نواة أو الهوية الأساسية للأزمنة الحديثة، حيث تم على إثرها تقديم فهم جديد للفعالية الإنسانية التي تضم خصوصيات مميزة لها. وبدأت المفاهيم من قبيل الخير،

الكرامة والعدل تستمد شرعيتها من منطق الذات الإنسانية، حتى الوجود أو العالم يخضع لذلك، لقد كانت للحداثة وعود كثيرة ،من اهمها هو تحقيق الكرامة الإنسانية والعدل، والحرية وتنمية الحياة بأسرها، وفرض التسامح، وجعل كل شيء في خدمة الإنسانية جمعاء ،بغض النظر عن الاختلافات العرقية والدينية، حيث روجت للتقدم والتطور، وهو ما تتحقق في بعض مناطق العالم ، لكنها لم تحقق كل مزاعمها،بل كانت هناك نقائص عديدة ،ولهذا توصف الحداثة بأنها ناقضة لوعودها ،ولقد عبر عن ذلك "**زيغمونت باومان**" بقوله <<وعد الحداثة قد أُخلف>>(باومان، 2016، ص12)، وهو في ذلك لم يبتعد عن يورغن"هابرماس" الذي كتب مقالا فلسفيا يمس تلك الحقيقية عنوانه«الحداثة مشروع غير ينجز» (هابرماس، 2002، ص ص16-34)، لقد اختلفت المواقف من مشروع الحداثة ، فهناك من حسم المسألة بأن الحداثة قد أخلفت وتراجعت عن وعودها، وبين من يرى بأنها لم تكتمل، وبالتالي فهي قابلة للاكتمال فعنوان نص "هابرماس" يؤكد بأن هناك ما يمكن إضافته إليها، ومع الفارق في القول إلا أن الكل متفق على وجوب النقد وتوجيهه للحداثة، والأدق مساءلة الحداثة وتبيان ما فيها من نقائص، وتشوهات كثيرة تعاني منها، فبين مبادئها والواقع الذي يحيل إليها فارقٌ كبير، أو على الأقل هناك من يشكك في أن الحداثة قد حققت شيئا، أو أن الواقع مطابق لوعدوها، هذا الشك وتلك العنوانين تحيل إلى أن العقل الغربي قد مارس النقد الذي تحقق أولا مع الحداثة، ثم نقد الذي جاء في القرن العشرين ليعري الحداثة من خلال نتائجها التي تبدو كارثية، وهذا يعني أن العقل الغربي من أهم خصوصياته النقد و«نقد النقد... لأنه هو الذي لا يستريح لإنتاج ولا لحصيلة إنتاج، ..يصعد دائما من المنتج إلى الآلة والواسطة والجهاز الذي فكر وصنع وابتكر أشكال التفكير والصنع، ما ارتاح عقل الغرب إل ذاته ولا إلى أية منظومة قافية أو مجتمعية أو تقنية... بل حفزه نقد النقد دائما إلى أن يفك عقاله من كل جهاز يحاول احتباسه، فكانت قدرته إلى الانزياح

وتغيير المواقع تجنبه الانشغال بلعبة الترائي بينه وذاته وصنائعه» (صفدي، 1990، ص05)، وكأن مهمة العقل هي النقد وإعادة البناء من جديد وعلى أسس جديدة، مهمة جريئة بحق وحاضرة في كل لحظة، والدليل على ذلك أن الفيلسوف الكندي تشارلز تايلور قد مارس النقد في كل كتاباته الفكرية والفلسفية المتعددة، ومقالاته التي شغلت بعض المعاصرين من الفلاسفة والمفكرين وحتى السياسية، والشيء المهم والمؤكد بالنسبة له أن من عالج مسألة الحداثة مقبل قد تم ذلك انطلاقا من وجهتين للنظر مختلفتين، أحداهما ترفض الأخذ بقيم الحداثة المختلفة والسبب أنها هي بالذات سبب الأزمة التي وقع فيها الإنسان المعاصر، حيث نجم عنها النزعة العبثية وأصلت في الإنسان القلق مع إخفاق وعود التقدم والسعادة والسيطرة على الطبيعة، وما زاد الطين بلّة هو تنامي النزعة التقنية غير المقيدة بالمعيار الأخلاقي، وهي بالذات من جعلت النزعة البربرية والوحشية تتصاعد ودمرت في العديد من البلدان الهياكل الثقافية والاجتماعية والسياسية وأثرت بمنتجاتها على البيئة وعلى الجسد الإنساني وتحول الأخير من المركز إل الهامش من حيث المعيار، حي حلت مكانه التقنية والتكنولوجيات المتطورة كمعيار قيمي، والثانية من وجهات النظر وهي مؤيدة لمشروع الحداثة والأنوار بصفة عامة وذلك نظرا للمساهمات التي حققتها الحداثة خصوصا المتعلق بالبعد العلمي والتكنولوجي، فضلا عن ترسيخ قيم ومفاهيم جديدة مثل القول بالفردانية/ الذات كمركز والتأكيد على مبدأ العقلنة والحرية (الشابي، دون سنة نشر، ص ص52-68)، وكلها مفاهيم جديدة أعادت الحياة للإنسان وللعالم وفق منظور دنيوي وعلمي وهذا ما يحسب لها في نظر الموقف الثاني.

اتخذ تشارلز تايلور موقف وساطا بين هذين الموقفين المتعارضين ، فهو لا يستغني عن الحداثة في كليتها، ولا يتقبلها كاملة، لأنه يعتقد بأن الاستغناء عن القيم السابقة للحداثة ضربٌ من الجنون والرفض لكل ماهو قبل الحداثة ، وذلك ما لم

يفهمه أصحاب الطرف المؤيد للحداثة والقائل بالقطيعة التامة مع الماضي وتراثه الفلسفي والعلمي، وما لم يفهمه هذا التوجه هو انه لا يمكن حسب تايلور أن نتجاوز الماضي في كليته، لأن ذلك يؤدي إلى فهم ناقص للحداثة والسبب هو جهل تاريخها الخاص، إن الفهم الصحيح لها يبدأ من الماضي وتتبع مساراتها ومصادرها باعتبارها كرد فعل على ما قبل العصر الحديث، هي جاءت كحوار وعمليات تأويل ونقد للتراث القديم، بل هناك من التصورات ما تم استدعاءه وأخرى رفضت لأنها صارت ميتة، وهذا يعني أن الحداثة كونها ظاهرة لها بنية خاصة لها جذورها التاريخية في البعدين الفلسفي والتيولوجي الممتد في عمق التاريخ، أي ما شد الموقف الثاني هو النظرة الاختزالية لتاريخ الحداثة، وهو ما يرفضه تشارلز تايلور جملة وتفصيلا، هو لا يفضل بالمرّة معالجة مسألة الحداثة من منظور انقطاعي، والأسلم هو العودة إلى ما قبلها لتحقيق فهم سليم ولذلك ما يطلق عليه القراءة الاتصالية للسماح بتقديم قراءة منفتحة على عدة التأويلات وهذا يعود في الأساس إلى أن «الحداثة ليست إلا حالة من أحوال الكينونة التاريخية التي هي بصدد التحقق على مراحل متواصلة وليست بكيفية متقاطعة» (بن تمسك، 2014، ص11)، ما يلزم هو استحضار الماضي بكل موروثاته الأخلاقية والدينية والفلسفية والروحية بكل اختلافاتها واستنطاقها مجددا لنتمكن من فهم التعقيد والتشعب وفقدان المعنى وتنامي النرجسية الذي نعاني منه اليوم، الحل الذي يقدمه تايلور واضح جدا للأزمة المعاصرة التي يعاني منها الإنسان والمجتمع الغربي المعاصر يقول تايلور:«فنحن لا نستطيع أن نفهم أنفسنا دون أن نفهم هذا التاريخ » (تايلور، 2014، ص34).

يسمح لنا هذا التاريخ بفهم أزمة الإنسان الحديث الذي يعني من القلق المزمن الناجم عن فقدان المعنى وضياعه في جوانب عديدة في الحياة و في ضل عالم تنزاح فيه ثوابت وتتبدل القيم في ظل تنامي النرجسية في تحقيق الذات والطغيان و الفر دانية ، و أضف على ذلك إقصاء البعد الروحي (الديني و الغيبي)الذي افقد العالم

المعنى باعتبار إن الإنسان كان ينظر إليه باعتباره كائن متعالي مقدس في هذا الكون الذي نعيش فيه ، وهذا ما سبب في تشظي الغايات السامية للإنسان المعاصر والتي رافقتها تساقط السلاسل الهرمية الاجتماعية والكونية أيضا ويشير تايلور في هذا الصدد بقوله «إن الحداثة وعالمها السائل قد أورثت هذا الكائن عدة أزمات ، وجلبت عليه قلق مزمن ومجموعة من الخسارات التي أصابت قلب كيانه الإنساني» (تايلور، 2021، ص10)، وذلك بان الحداثة التي أنتجت لنا الفردانية **l'individualisme** باعتبارها إحدى أهم الإنجازات الإنسانية والتي تقوم على تحقيق الذات الإنسانية باعتبارها كيان مفكر ومستقل لا يخضع لأي سلطة متعالية تحاول ممارسة فعل الوصاية عليه إلا لسلطة العقل كمصدر حاسم ومنه يمكن القول أنها تمثل أعظم انجازاتها التي حققتها، وهي المسؤولة عن الوضع الناجم والتي تعاني منه اليوم المجتمعات الغربية وهذا ما يسعى تايلور لتوضيحه .

إن الحداثة كمشروع تاريخي يعتبر بمثابة تجسيد لصيرورة التقدم والتطور الفكر الإنساني وتلميح لتجاوز التقليد الذي يتنافى مع جوهر الحداثة بحد وصف ماكس فيبر، واثبت من انه حقق قفزة تقدمية بالإنسان والحضارة الغربية، خصوصا ما تحقق من إنجازات في البعد العلمي والتقني والتكنولوجي كما رسخت لقيم العقلانية و الفر دانية ، وعلى الرغم مما تحقق بفعل الحداثة من منجزات والقفزة التي أحدثتها لصالح الإنسان وبالإنسان، إلا أنها لم تسلم من النقد والمساءلة من العقل الذي كان هو علّة لها، لقد التفت الأخير إلى الحداثة ومنجزاتها ليعيد قراءة تاريخها الخاص، ويسأل ما الذي أنتجته في نهاية المطاف للإنسانية أو للإنسان الغربي؟. وأي وضعية صار عليها الإنسان المعاصر بفعل الحداثة؟

كان الكل يشعر بأن الحداثة قد انقلبت، ونتائجها صارت كارثية على الإنسانية، منذ البداية كان موقف القوى الرجعية الدينية وحتى السياسية التي تحن للزمن الإمبراطوري موقفها مضاد للحداثة لأنها أفقدتهم الوضع الاجتماعي

والاقتصادي والسلطوي الذي كان لها، والقوى التقدمية التي تؤمن بأن الحداثة قد جعلت الإنسانية تكتسب حقوقا لم تكن لها من قبل، وهيمنة ومعرفة على العالم بأسره، وفي نظرهم أن الوضع فقط الذي يمرّ به الإنسان المعاصر يحتاج إلى إعادة قراءة للحداثة كمحاولة لتدارك ما فيها من ثغرات وعيوب قادت إلى البؤس أو الأزمة التي يعيش فيها الإنسان المعاصر، تداركٌ من شأنه أن يدفعها وبالقوة إلى أن تبلغ كمالها وحدوده المنطقية القصوى التي تتأسس على القيم والكرامة الإنسانية، إن الذي حدث بفعل الثغرات التي فيها أن الحداثة لم تكتمل بعد، بل لم تنجز مشروعها الذي وعدت به بالكامل، بسببها زادت معانات الإنسانية بترسيخها القيم النفعية وتضخم الأنانية والنرجسية في اليومي، ليتم إفراغ الحياة من القيم الروحية والجمالية والثقافية، وبالتالي فقدان الغاية وهي تحقيق السعادة والرفاهية من الأساس، ما حدث هو ظهور تشوهات كثيرة أدت إلى المفارقة بين القيم التي تبشر بها الحداثة وبين الواقع الحي، وكأن الحداثة فقدت مسارها ومن يعبر على ذلك الفقدان هو اندلاع حربين عالميتين فضلا عن فشل الأنظمة الديمقراطية والعلمانية التي وعدت بالكرامة الإنسانية وحرية أكبر للفرد، العكس هو الذي حدث، أنظمة فاشية متعددة، ونازية سحقت الإنسان أو الفرد وحولته إلى مجرد آلة للقتل وذلك بمقابل مادي وترقية في الرتبة، ليتمكن منه منطق المنفعة واللذة الحسية دون أي منطق آخر يأخذ في الحسبان قيمة الإنسان من حيث هو إنسان، وهذا يعني أن الأزمة قد ضربت اليومي الغربي، وأدخلت الإنسان في نفق مظلم، كانت هي بالذات المدخل الرئيسي للنقد الذي سيمارسه تشارلز تايلور ولقراءته الجديدة التي صبرت غور الحداثة وبيّنت الأسباب التي قادت إلى تلك الأزمة..

3.الفردانية وفقدان البعد التراتبي التقليدي للإنسان

لقد اقترنت عظمة الحداثة بما تحقق من ابتكارات وإنجازات عرفت خلالها تحقيق التقدم العلمي والتقني كما زادت من تعزيز القيم الإنسانية والحريات داخل

سلم القيم الحضارة الغربية الحديثة، وعلّة ذلك كله هو اعتبار الفرد الأساس الأول لها، لقد منحت له الحرّية في الدولة الحديثة وتم التكفل بها بشكل قانوني، حتى صار قادرا على التخلي عن العقائد بدون عاقب أمرا عاديا، أي أن الفر دانية والدعوة إليها قد سمحت باختيار الفرد لنمط حياته الشخصي وتبني معتقداته الخاصة بها دون الحاجة للخضوع للأنظمة القديمة التي ألزمت الأفراد تقديم الطاعة المطلقة لها تحت مسمى المقدس فمهدت بذلك لتحرير والانعتاق من أي مرجعية خارجية وهذا ناجم عن ما اسماه تايلور«تعزيز فردانية تحقيق الذات»(تايلور، 2021، ص34)، كل شيء هو منها وعلى مقاسها الخاص، وكأن الذي حدث هو انفلات الإنسان من الآخر المفارق الذي تعزز حضوره الخطابات اللاهوتية والميثولوجية التي تقيله من دائرة الفعل في الحياة، ليمهد بأساطير وفلسفات جديدة كبديل عنها تعزز مركزية الإنسان والتركيز على الذات كمبدأ أول للحقيقة واليقين وصناعة الحدث، نعم لقد صار كل شي يقع تحت يده ويحقق من خلاله ما يريد أن يكون في الحياة، معلنا من خلال ما يفعل عن حقيقة أن لا شيء يمكن أن يحدث في العالم دون الإنسان سواء من حيث تنميه أو إحداث الكوارث، وبالتالي تأكيد استقلاليته عن كل قوى متعالية لينتهي بذلك خطاب الاستتباع للقوى المتعالية بما يفعل ويفكر وتأكيد الذات فالعصر الحدي هو عصر الذات ومن أجل الذات يقول تشارلز تايلور أن«النزعة الفردانية التعبيرية التي تشجع الأفراد على التعويل على ذواتهم و تخيير أسلوبهم الخاص في الحياة و الاهتداء إلى الطريقة التي يرتؤونها في تحقيق أهدافهم الخاصة وعلى الاعتناء بشؤونهم » (تايلور، 2019، ص434)، ومن هنا يتبين لنا بان الفردانية قد جسدت النواة المركزية لمشروع الحداثة والتي مست كل الأبعاد الإنسانية كما أنها قادتنا إلى مفارقاتها كبيرة ظهرت بين مقدماتها التي كانت ايجابية والنتائج التي كانت في بعض المرات كارثية، والسبب في ذلك أنها منحت للإنسان الحديث الحق في السعي لتحقق منافعه الخاصة دون إعطاء أي أهمية للقيم

الأخلاقية والمعتقدات الدينية كما أنه أصبح ينظر لأعضاء لمجتمع الحديث على أنهم مجرد أفراد لا كونهم بنية موحدة، وتلك النظرة كانت جزءا من تركيبة وعيه الشخصي، لقد أضحى الفرد يلهث خلف تحقيق المكاسب والمنافع وبذلك زاد غرقا في الملذات، والنرجسية والأنانية إلى حد المرض، حتى صار عالة على المجتمع الذي تحول إلى مجرد هيكل بدون روح، وما زاد في عملية الإنهاك والفراغ هو سيطرت العقل الآلي النفعي في ظل نظام رأسمالي لا يعترف إلا بما تحققه التكنولوجيات من ربح وإن كان الأمر على عاتق المجتمع والطبيعة والقيم الإنسانية، الهشاشة هي النتيجة، هشاشة الروابط الاجتماعية حيث صار المجتمع قابلا للتفكك والانهيار.

إن ما أنتجه الحداثة هو فقدان للقيم الإنسانية القديمة التي كانت تستمد قوتها من النصوص المقدسة، لقد فقد الإنسان الحس الإنساني الذي يسمح بتعامل سليم مع الناس والتي كان يستمدها من المجتمعات التقليدية نظرا لاكتفائه بما تقدمه التقنية من البدائل في ظل تنامي المجتمعات الصناعية والاستهلاكية التي تصبو لبلوغ الرفاهية والسعادة وهذا متسبب في زيادة بؤس الفرد بعد تحوله لأداة هدفها الأقصى تلبية احتياجاته الحسية والمادية والتي يفرضها السوق بعدما تما تهميش الأبعاد الثقافية والروحية وخصوصا الدين الذي لطالما قدم تصور على أن الإنسان ينفرد بمكانة متعالية ومقدسة عن باقي الكائنات، أي أن التراتبية التي كانت تفرضها الرؤية الدينية للإنسان بوصفه على صورة الإله وأنه أعلى رتبة من باقي الكائنات قد انهارت، وصار بفعل العلوم مجرد كائن بيولوجي ينتمي لمنظومة القوانين الطبيعية، أي أنه يخضع إثرها للقوانين الميكانيكية والفيزيائية، والأدق صار ينظر إليه على أساس مجرد عنصر ينتمي لسلسلة هرمية كونية بعدما تخلى عن المركزية التي قدمتها التصورات الميتافيزيقية والدينية في الماضي واستبدالها بما يقدمه المذهب الطبيعي والنزعة العلموية والتي أضحت تنظر إليه على انه مجرد عينة يخضع للقوانين العلمية، وهذا ما يمنح إمكانية فهم السلوك الإنساني فهما علميا، والتحكم

فيه سيكون هو الهدف وفق أنصار التوجه العلموي، طبعا يقف تايلور موقف المشكك في صحة ذلك، بل يصل به الأمر إلى القول باستحالة تطبيق النموذج العلموي كمقياس لدراسة الحياة البشرية وفهم الذات وسلوكها حي اعتبر ذلك «احد المنابع الكبرى للوهم والخطاء في تلك العلوم». (تايلور، 2014، ص110).

لقد أخطأت النزعة العلموية في سعيها لتعميم ذلك وجعل الأمور تصل إلى تكوين رؤية فلسفة ذات أساس علمي ذي السمة القطعية والموضوعية متناسية بذلك أن المعايير نفسها لا يمكن أن تطال التجربة الحياتية للإنسان، فكل شخص حياته تختلف حياته عن الباقي وذلك بحسب التجربة المعاشة فضلا عن الاختلاف الطبقي والعقائدي بل والتعدد الثقافي الذي يقودنا إلى تباين الأحكام حول عدد كبير من القضايا والمواضيع، إن التجربة الإنسانية تتسم بالنسبية، من هنا كان الدرب الجديد الذي سلكه تشارلز تايلور في مشروعه الثقافي والسياسي، الاختلاف هو السرّ والأصول يجب أن تتبع، ولا يوجد مرحلة مستقلة عن باقي المراحل، وكأن العودة إلى الخلف هو من أجل تأكيد بأن فهم الأزمة المعاصرة يجب أن يكون من ذلك الموقع، والتحليل الذي يكون ذا نتائج يجب أن يأخذ ذلك في الحسبان، إن الرجوع إلى الخلف هو في الحقيقة عبارة عن عملية تتبع للمسار الجينيالوجي لتطور الفردانية التي يعتبرها تايلور أنها تضرب في عمق التاريخ وأنها ليست بنت اللحظة أعني الأزمنة الحديثة، نعم هي كذلك ولو تتبعنا وفق تايلور لوجدناها تمتد إلى المرحلة اليونانية وما يأتي بعدها من العصور، وهي وحدها من يسمح لنا بمعرفة الحقيقة، إن السؤال الذي يريد تايلور الإجابة عنه والاشتغال عليه هو من أين تستمد الذات الإنسانية الحديثة قيمها؟ هل من خلال انتمائها للجماعة والموروث الثقافي الذي لها؟ أم من ذاتها هي من جهة كونها مستقلة وحرّة من أي انتماء جماعي وعقدي؟

تلك الأسئلة هي عينها التي أُثيرت بين الليبراليين الجدد والنزعة الجماعتية ورأس المشكل بينهما لا يقع في التشديد على مسألة العدالة أو التوجه إلى الكونية

وإنما في مسألة الفر دانية، الأولى تعطي أهمية بالغة للأخيرة والثانية تسحقه، فالليبرالية لا تضع حدودا تتوقف عنها طموحات الفرد، وكل نظرياتها تبنى على «على مفاهيم الحقوق الفردية والحرية الشخصية ولكنهم لا يعيرون اهتماما لمدى ما تتوقف حرية الأفراد ورفاههم على وجوهم داخل الجماعة، [والنزعة الجماعتية ترى بأنه مادام أننا نعترف] بارتباط الكائنات البشرية في وجودها بالمجتمع كان واجبنا العمل من أجل الخير المشترك للمجتمع .. [من هنا] يحاجج الجماعتيون أنه من الضروري لنا التخلي عن سياسية الحقوق الليبرالية أو على الأقل رفدها بسياسة في الخير المشترك» (كيملشكا، 2010، ص272)، لكن الذي انتصر هو الفر دانية التي تدعو إليها النزعة الليبرالية، وهذا ما خلق مأساة في المجتمعات الغربية المعاصرة، وهذا ما لا حظه تايلور الذي حاول رم الهوة وسد الفجوة بين تلك النزعتين المتعارضتين عبر تشخيص الأزمة وتقديم الحلول.

لقد تبين لتايلور أن النزعة الذاتية التي تأسست بفعل الفلسفة الحديثة كانت السبب الأساسي في ذلك، لقد أغرت الفلسفات أفراد المجتمع بفكرة الحقوق والحريات، واحترام الفرد وهو ينجز مشروعه الخاص، لتفح المجال للرغبات والأنانيات لتكبر وتتضخم، لأن فكرة الخصوصية أو المجال الخاص لكل فرد كان الشعار الكبير لليبرالية، لتتحول بذلك إلى ثقافة قائمة بذاتها، الكل له الحق في اختيار الأهداف الشخصية الفردية ولا أحد يفرض على الآخر ما يجب أن يكون، هناك الاحترام المتبادل بين الأفراد لأنهم تقبلوا فكرة الاختلاف والتعدد كحق قائم تتكفل به وتضمنه النصوص القانونية بالقوة، لأن الأساس في هذا الحق هو كوننا ذوات متحررة ومنفصلة عن بعضنا البعض، الاستقلالية والخصوصية هي شعار تلك المرحلة فالنظام المعيار الجديد كما يقول تشارلز تايلور :«يقوم على الاحترام المتبادل والخدمة المتبادلة بين الأفراد المكونين للمجتمع» (تايلور، 2015، ص ص23-24)، وهي بالذات من عزز ثقافة الشعور باحترام الذات وحقوقها، ولئن

فتحت الليبرالية المجال واسعا أمام تعزيز الفرد لذاته من جهة كونه فردا متفردا، وذات لها سلطة على ذاتها وعلى الرغم من أنها استطاعت أن تتجاوز الأنظمة التسلطية الكلاسيكية وتحقق الحرية له إلا أن النقد الجذري قد طال مبدأ الفردانية والذاتية، لأن جعل الفرد مقياس كل شيء، ويحقق كل شيء لصالحه ووفق رغباته يجعل من النسبوية تصل إلى حدودها الكارثية، ولذلك ما يقرّ به ضمنيا تايلور عندما أشار إلى أن التسليم بما تقوله الليبرالية سيقودنا إلى «النزعة النسبية الناعمة **soft relatism**» (تايلور، 2021، ص57)، وبالتالي فقدان البعد الروحي والسامي الذي كانت الأنظمة القديمة تضفيه على الإنسان والذي كان يعطيه طابعا بطولي لكل نشاطاته في العالم والحياة، لم يكن بالمرّة الإنسان ذا بعد واحد محصور في العالم والإنتاج وتحقيق الرغبة والأنانية والهيمنة على ما يقع تحت اليد، بل كان يمتد إلى العالم الروحي الذي يستمد منه قيما سامية تجعل من الروابط الاجتماعية قوية ومقدسة، لقد تحول إلى آلة وكتلة من الرغبة التي يجب أن تتحقق وتستحوذ على كل شيء، وتلك هي النتيجة التي أوصلته إليها النزعة العقلانية الحديثة التي ترتبط بالمر دودية الإنتاجية (أي الاحتكام لقوانين السوق الحر) ومنه تحول الفرد إلى مجرد سلعة تسعى لتحقيق السلطة والمناصب الشخصية وهذا ما يجعل الحياة الإنسانية تنغمس في الملذات الحسية والنفعية ما تسبب فقدان البعد السامي وتحولها لمجرد الحياة سطحية تقصى فيها القيم مثل المحبة والتعاون الجماعي لصالح الفردانية المتحررة التي تنشر قيم مثل الأنانية **Egoïsme** و النرجسية **naracissme** .

الشيء الذي ساد هو النزعة الذرية وتأكيدها، لم تعد هناك روابط إلا إذا كانت هناك مصلحة تتحقق من وراءها، طبعا ليست مصالح معنوية بل هي مادية محضة، ما إن تنتهي المصالح وتتحقق الرغبات تتفكك الروابط، لذا يظهر المجتمع الغربي هش من حيث الروابط الاجتماعية، الاستقلالية كانت هي المسيطرة على ذهن

الأفراد، لقد تغيرت بنية المجتمع الغربي تغيرا جذريا، وتحطمت الأشكال التقليدية التي كانت لديه والتي تحمل معاني ترتكز عليها كالأسرة والثقافة والدين، لتحول إلى شكل جديد يسمى بالمجتمع الصناعي الذي يعتمد بالأساس على التقنية والتكنولوجيا، والقول بالنزعة الذرية يعني أن المجتمع الحديث أعطى الأولوية للفرد على حساب الجماعات من خلال تكريس مبدأ تحقيق الذات والتي تسعى لتحقيق وتلبية الغايات الشخصية دون النظر للآخر أو الأخذ بالحسبان المسائل المشتركة هذا ما تسبب في تشرذم المجتمع وتعرضه للتجزئة والتفرقة الناجمة عن غياب الروابط العاطفية والتي كانت تستمدها من المثل الأخلاقية والتي تلاشت فقد كانت المؤطر لكل التصورات المشتركة بين الأفراد كما وقد أصبح الإنسان الغربي اليوم محروم من الأفاق الأخلاقية والتي تعطي معنى لروابط الإنسانية وقيمة للحياة الاجتماعية التي يعيشها بحيث لتبقى منغمسة خلف الملذات والماديات والتي تحولت للمطلب الرئيسي للمجتمعات المعاصرة .

في كل مرّة يتقدم الإنسان الغربي إلى الأمام كانت الأيديولوجيات السائدة ذات الروح الليبرالية تغرقه في الوهم، من خلال شعار الذات المتحررة التي بإمكانها تقديم الأنسب لذاتها دون الحاجة لأي سلطة أخرى إلا سلطة العلم الوحيد القادر لإيصالها لليقين والصواب وتوفير الأنسب لها، كان في كل مرّة يغرق في اللايقين، والقلق، لأنه في الأصل ذا بعدين بعد روحي وبعد مادي، وكأن الحداثة استطاعت أن تستغني عن ما هو روحي لكنها لم تقدر على إعدامه من الأساس، لم تستطع التخلص منه، أو أنها علقته في الظاهر وهو في الحقيقة بقي يشتغل في الخفاء يعود من جديد، يبدو أن تشارلز تايلور قد أحس بذلك، لذا عمل على رفض كل القراءات التي تهمش ذلك البعد، والأحرى تهميش الأطر والمرجعيات الموجهة للإنسان، والأدق اختزالها في العلم الطبيعي ومحاولة إخضاعها لوهم الموضوعية، وعل هذا كان إيمان تايلور هو عكس ما كان تؤمن به النزعات المنتصرة للعقل الأنواري والتي تعتقد بأن قدرات

الأخير على تطوير والارتقاء بالإنسانية ممكن وبإطلاق بل وليس له حدود، تايلور يرى في ذلك مغالطة فما حققه العقل الأنواري في الواقع قادنا إلى خلاف ذلك، ما كنا ننتظره في الواقع هو تجسيد وعوده ومبادئه الإنسانية لكن العكس الذي حصل، لقد حصل انحدار في كل شيء عدا تقدم التقنية والتكنولوجيات، وهي من زادت من تكبيل الإنسان وتشميع مفاصله بأغلال وصمغ الأنساقالعلموية والنفعية، لقد أفسدته وأفقدته المعنى والقيمة، ونمى فيه الشعور بالاغتراب والتشيؤ، فضلا عن الانحطاط الأخلاقي الذي يتجلى في مبدأ تحقيق الغايات بأي وسيلة وذلك كله يحيل إلى إفساد الطبيعة الإنسانية من الأساس، المهمة إذن هي إعادة تصحح المسار عبر إعادة بعث الطبيعة الإنسانية من العمق الذي حجبته الطبقات المتكلسة بسبب الرغبة، والأنانية الفردية، بسبب النرجسية العالية التي فعّلت قواها فلسفات الأنوار والعلوم الوضعية، إن الفرد يبقى كائنا اجتماعيا وملزمٌ بالتفاعل مع الآخر، والاندماج معه داخل المنظومة الاجتماعية، فهو يصادف الآخر يوميا، يتعامل معه في جميع الأماكن، ومهما سعى لتحقيق ذاته ومحاولاته البقاء في حالة عزلة فهو يبقى بحاجة للعناصر الاجتماعية الأخرى، ما يجب هو تفعيل القوى المحجوبة في عمقه والتي تلزمه بالسعي إلى تحقيق التناغم رغم التعارض الموجود والقائم بين نوعين من الطموح«بين الطموح الأناني الخالص(للفرد) و الطموح الجماعي» (زيمل، 2017، ص218).

4. خاتمة

وفي ختمت بحثنا يمكن القول بان الحداثة و الفر دانية استطعت تأسيس لبراد يغم جديد يقوم وفق معايير إنسانية متجاوزا بذلك الأطر والمرجعيات الكلاسيكية التي لطالما قدمت تصورات ومعاني للوجود الإنساني بإضفاء الطابع القداسة والتي افتقدته الحضارة الغربية اليوم وناجم عنه التسطيح الحياة الإنسانية وانغماسها في الماديات والملذات وبذلك بحسب تايلور لابد علينا من

ضرورة استكشاف وقراءة الحداثة من اجل استيعاب هويتنا وفهم الأزمة التي يعاني منها الإنسان الغربي اليوم ،

5. قائمة المراجع:

باومان،زيغموند. (2016).الحياة السائلة.تر حجاجأبو جبر (ط01).بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

بن تمسك،مصطفى. (2014). أصول الهوية الحديثة وعللها مقاربة تشارلز تايلور. (ط01). بيروت:جداول للنشر والترجمة والتوزيع.

تايلور،تشارلز. (2014). منابع الذات تكون الهوية الحديثة. تر، حيدر حاج إسماعيل (ط1). بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

تايلور، تشارلز. (2015). المتخيلات الاجتماعية الحديثة، تر الحارث النبهان (ط01). قطر:المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

تايلور،تشارلز. (2021). أخلاقيات الأصالة. تر احمد عويز (ط01). بيروت: المركز الأكاديمي للأبحاث.

تايلور، تشارلز:. (2019). عصر علماني.تر نوفل الحاج لطيف (ط01). بيروت: جداول للنشر و التوزيع .

حرب، علي. (1993). النص والحقيقة IIنقد الحقيقة (ط1). المغرب: مركز القافي العربي.

ديكارت، رنيه. (2008). حديث الطريقة. تر عمر الشارني (ط1). بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

زيمل،جورج. (2017). الفرد والمجتمع المشكلات الأساسية للسوسيولجيا. تر حسن احجيج (ط1). الرؤية للنشر والتوزيع.

الشّابي، نور الدّين. (دون سنة نشر). نقد نيتشه للحداثة.(أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، تونس).

صفدي،مطاع. (1990). نقد العقل الغربي الحداثة وما بعد الحداثة. لبنان: مركز الإنماء القومي.

كيملشكا،ويل. (2010). مدخل إلى الفلسفة السياسية المعاصرة. تر منير الكشو، مرا صالح مصباح وآخرون (ط1). تونس: منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة.

هابرمس، يورغن. (2002). الحداثة وخطابها السياسي. تر جورج امر، مرا جورج كتورة (ط01). بيروت: دار النهار للنشر.